الفصل الثامن عشر

في الرحلة العلمية بالأقصر

«صورة معبد الأقصر مأخوذ من كتاب المعلم داريسي»

أما رحبة المعبد المرموز لها بحرف «أ» فهي من عمل رمسيس الأكبر وقد سبق الكلام عليه بما فيه الكفاية.

حوش «ب» هذا الحوش يعرف باسم حوش الأعمدة أو الأساطين وهو من عمل أمنحتب الثالث كما تقدم وقد بنى به في الجهة الشمالية برجين يبلغ عرضهما ٢٦ مترًا ليكونا وجهة المعبد وذلك قبل أن يبني رمسيس الأكبر رحبة «أ» وفي أيام الدولة المقدونية بنى «فلبش أرّيدا أخو الإسكندر الأكبر وابن فلبش من السفاح» دعامتين بين هذين البرجين وتماثيل رمسيس الأكبر ليصغر بهما الباب الموصل من الرحبة إليه ولم يبق منهما الآن إلا الدعامة الشرقية التي عليها اسمه.

وبقياس الجدار الشرقي والغربي من هذا الحوش ظهر عدم تساويهما فإن طول الأول يبلغ ٥١.٢٨ مترًا وطول الثاني ٥٢.١٨ مترًا وهذا الفرق أتى من الإنحراف الذي جعله أمنحتب في أحد برجيه لتلطيف الميل الذي ظهر في محور المعبد بعدم إنطباقه على محور الطريق الواصل من هذا المكان الي معبد الكرنك وفي أيام الدولة السفلى أعني أيام دخول الدين المسيحي بمصر فتح النصارى في الحائط الشرقي منه ثلمة أي فتحة فأتلفت كثيرًا من مناظره اللطيفة وقد أسلفنا أن الملك «هورمحب» أتم ما كان ناقصًا من زينة هذا المعبد فلذا ترى اسمه مكررًا على جدران هذا الحوش وتراه على الحائط الشمالي الشرقي كأنه بالمعبد خلف باب مصنوع من قضبان الحديد يتقرب بالبخور إلى المعبود أمون والمعبودة موت وتراه على الحائط الشرقي يدخن بالبخور ويريق الأشربة أمام سفينة أمون أما الثلاث سفن التي هي أسفل هذه الصور فواحدة منها للملك نفسه وثانيها للمعبودة موت وثالثها للمعبود خنسو ثم ترى هناك قربًا موضوعًا فوق الموائد وعلى الأطباق.

وظن بعضهم أن هذه الهيئة كانت مقدمة للمهرجان أو الزفاف الذي كان يعمل بمدينة طيبة سنويًا للمعبود أمون ويخرج من معبد الكرنك فيسير في النيل حتى يصل معبد الأقصر ويدخل فيه ثم يعود من حيث أتى.

وكان المهرجان يتركب من أربع حجرات أو صناديق يحملها ثمانون كاهنًا على أكتافهم وتسير طائفة أمامهم وطائفة خلفهم ولكل واحد مذبة «منشة» بيد طويلة ثم أربعة منهم تسير بجوار تلك الحجرات وهم متشحون بجلد النمر وفي مقدمة الجميع كاهن بيده المجمرة «المبخرة» أما الملك فيتبع سفينة المعبود أمون ويسير الموكب أو الزفاف على هذا النسق يتقدمه النفير والطبل وجميع ذلك منقوش على الأبراج ومتى وصل الزفاف لنهر النيل وضعوا الأربع حجرات في سفن كبار تجري بالمجاذيف أو تسحب بالأحبال والأقلاس أو تجنب خلف سفن أخرى تسير بالأشرعة أما الموكب فيمشي على البر تابعًا للسفن وهو مركب من كاهن يترنم بالمديح والثناء على المعبود أمون وعلى الملك ويتلوه فرقة من العساكر المصرية تحمل درقًا وحرابًا و بلطًا ثم عربتا الملك تجرهما الخيل ثم رجال تجر السفينة الحاملة لحجرة المعبود في البحر وبعضهم يلتفت ويصيح بالتمجيد والتقديس أو يجثو على ركبتيه ويعلن بالثناء والحمد ثم ثلاثة من العبيد ترقص وهي تتلوى بعنف أما الرابع فيضرب على الطنبور ثم يتلوهم عساكر على رأس كل واحد منهم ريشتان و بيدهم قضبان من الخشب يتقارعون بها بدل الساجات ثم ثمانية من الكاهنات مع كل واحدة منهن عقد و يضربن بالكوسات ثم أربعة من الكهنة ثم رجال تجر سفينة المعبودة موت في النيل وضباط تحمل الرايات العسكرية وجماعة تضرب بالساجات أو الكوسات ورجل ضرب على طنبور ذي يد طويلة وآخرون يصفقون.

ومتى وصل الزفاف أو الموكب قبالة معبد الأقصر أخرجت القسس تلك الحجرات المقدسة إلى البر وحملتها على أكتافها فيسير الموكب يتقدمه الطبل والنفير وتضرب الكاهنات بالكوسات يتلوهن نساء راقصات وهن وقوف يملن على ظهرهن حتى تصل أيديهن إلى الأرض ثم تدخل الحجرات المقدسة في المعبد وتقدم لها القرابين وجميع ذلك مرسوم على الحائط جهة الجنوب الغربي وعلى الباب ترى جماعة من كبار رجال الحكومة وقوفًا بإنحناء ينتظرون خروج الملك.

وبعدما تتم رسوم الإحتفال داخل المعبد وتقدم القرابين تحمل الكهنة الحجرات المقدسة ثانيًا على أكتافها فترى صورة سفينة أمون مرسومة أعلى وترى أسفلها سفائن كل من المعبودة موت

والملك وصورة ثيران تجعل قربانًا حالة سير الزفاف فتنزل الحجرات أو الصناديق في السفن ثانيًا وتجري على النيل مثل ما أتت ويسير الزفاف في البر على النسق الآتي أولًا ضباط من العساكر تحمل الرايات وتمشي الهرولة يتبعها فرقة من الجند ويتلوها طائفة من العبيد تنط وتصرخ ثم فرقة من الجند بالبيارق أو الأعلام ثم عربتا الملك تجرهما الخيل ثم فرقة من العساكر المشاة ثم كاهنات يضربن بالكوسات يتلوهن أربعة من الكهنة ثم فرقة من العساكر ثم جماعة تضرب بالطنبور وجماعة تدق بالساجات ثم المغنون أو المرتلون يصفقون بأيديهم على الإيقاع والنغمة ثم قسيس يبخر الطريق ثم تخرج الحجرات من النيل و يتوجه الزفاف من حيث أتى إلى معبد الكرنك بالهيئة المتقدمة وصورة ذلك مرسوم على الباب.

وعليه صورة ثمانية صواري بها بيارق وهناك ترى صورة ثيران بين قرونها أكاليل من الريش والزهر ومتى دخلت الحجرات ووضعت في أماكنها ذبحوا القرابين ووضعوها بالقرب منها وقد دلت النصوص المكتوبة هناك على أن زفاف أمون أو المهرجان الأكبر يكون في رأس كل سنة جديدة وإلى هنا انتهى وصف الزفاف بالإختصار.

فكان يجتمع في هذا المهرجان خلق لا يحصيهم إلا الله يأتون من كل فج عميق ومكان سحيق وتهرع له الناس من كل مكان حتى تصير هذه العاصمة خاصة بهم كأنهم في يوم الحشر وناهيك بعيد المعبود الأكبر يقام في أعظم العواصم ولا يخفى ما كان يترتب على ذلك من الحركة والمكاسب ورواج سوق التجارة أو ليس كان هذا عبارة عن المعرض المستعمل الآن ببلاد الإفرنج لرواج البضائع والسلع والحركة التجارية.

«استطراد لا بأس به»

«كان للقبط في دولة الإسلام بمصر أعياد كثيرة منها ما ذكره المقريزي في الجزء الأول بصحيفة ٦٨ ونصه ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أنزه فرح مصر وهو اليوم الثامن من بشنس أحد شهور القبط و يزعمون أن النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتًا من خشب فيه أصبع من أصابع أسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيدًا ترحل إليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على إختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغيّ ولا مخنث ولا ماجر وخليع ولا فاتك ولا فاسق إلا ويخرج

لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم وتصرف أموال لا تنحصر ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق وتثور فتن وتقتل أناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم بما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهبًا و باع نصراني في يوم واحد اثني عشر ألف درهم فضة من الخمر وكان إجتماع الناس لعيد الشهيد دائمًا بناحية شبرى من ضواحي القاهرة وكان اعتماد فلاحي شبرى دائمًا في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد ولم يزل الحال على ما ذكر من الإجتماع كذلك إلى أن كانت سنة اثنتين وسبعمائة والسلطان يومئذ بديار مصر الملك الناصر مُحَمَّد بن قلاوون والقائم بتدبير الدولة الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وهو يومئذ

إستادار السلطان والأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة بديار مصر فقام الأمير بيبرس في إبطال ذلك قيامًا عظيمًا وكان إليه أمور ديار مصر هو والأمير سلار والناصر تحت حجرهما لا يقدر على شبع بطنه إلا من تحت أيديهما فتقدم أمر الأمير بيبرس أن لا يرمي إصبع في النيل ولا يعمل له عيد وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الإجتماع بشبرى على عادتهم وخرج البريد إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بإجهار النداء وإعلانه في الأقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى ولا يحضر لعمل عيد الشهيد فشق ذلك على أقباط مصر كلهم ومشى بعضهم إلى بعض وكان منهم رجل يعرف بالتاج بن سعيد الدولة يعاني الكآبة وهو يومئذ في خدمة الأمير بيبرس وقد إحتوى على عقله إلى آخر ما قال فراجعه إن شئت».